الإمام أبو الحسن الأشعري

كلمة مؤتمر ماليزيا للدكتور محمد توفيق رمضان البوطي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنني أتوجه بالشكر الجزيل إلى الجهات التي قامت بعقد هذا اللقاء المبارك الذي آمل أن يكون بداية مباركة لجهد يجمع كلمة الأمة ولا يفرقها، ويصحح المسار ولا يحرفه، ويعمل لله وحده لا لجهة بشرية وطلباً لرضى الله لا استرضاء لغيره. وأسأل الله تعالى أن يثمر هذا اللقاء توحيد كلمة المسلمين على اختلاف أطيافهم.

الاختلاف بين المسلمين معهود ويعود أصحابه منه إلى حوار يجمع الكلمة ويعيد المودة. أما النزاع فقد منعنا منه ربنا تبارك وتعالى عنه، ألم يقل ربنا سبحانه: (وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) واختلاف أئمتنا كانت له آثاره الطيبة إذ شحذ أذهانهم لدرك معاني النصوص ومناقشة الفهوم التي وصل إليها كل فريق، ليكون ذلك سبيل إثراء للمعنى وسعة في الدين.

وقد ظهرت في تاريخنا فئات لم تلتزم النهج الصحيح في فهم دينها فجنحت إلى اتجاهات تجافي صريح النصوص أو مقاصدها الثابتة، أو انحرفت في فهم بعض ثوابت العقيدة انحرافاً دفع علماءنا الأجلاء إلى التصدي لانحرافاتهم بالحوار العلمي، متسلحين بنصوص الكتاب والسنة وبمنهج أهل الحق في فهم تلك النصوص، فنصرهم الله وأيدهم وأعاد أكثر الشاردين إلى حظيرة الحق ومنهجه.

ظهرت القدرية والمعتزلة والحشوية والمرجئة ... ثم تلاشت تلك المذاهب سواء كان ظهورها لأسباب سياسية أو غيرها. وظهر الحق وأهله. ومحنة الإمام أحمد مع المعتزلة مثال على ذلك.

وإذا كان من واجب علماء الأمة أن يوضحوا وجه الحق فيما يعرض من خلاف، حرصاً على تجلية الحق ودرءاً للخلاف في أمر الدين في أي عصر من العصور؛ فإن عصرنا هذا أجدر بأن يتصدى علماؤه لإزالة اللبس الذي تسعى جهات كثيرة لترسيخه؛ سعياً وراء تشتيت الأمة وإثارة أسباب النزاع بين أبنائها.

إنني هنا لا أدعي أن بوسعنا إزالة الخلاف ... فالخلاف كما أشرت وجد منذ فجر تاريخ الأمة، وقد اتسعت صدور العلماء له، ولكن الذي يجب أن نحول دونه أن يصل إلى التطرف والغلو، والذي يؤدي إلى الخصومة، ويدفع إلى التكفير، ومن ثم إلى نزاع دموي يرضي الشيطان وأعداء الأمة.

إن اجتماعنا هذا أرجو أن يكون سبباً في لجم مشاعر الكراهية والتطرف وسبباً في إعادة مشاعر الأخوة والمودة التي أمرنا ربنا بالسعي إليها فقال:(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) من خلال ترسيخ نقاط الاتفاق والأصول الجامعة، والعمل بإخلاص على ترسيخ أسباب المودة والمحبة والتضامن والتودد بين المسلمين، ومنع كل ما من شأنه أن يوسع أسباب النزاع بين أبناء الأمة.

وبعد فإن بعض المسلمين يسعون للتشكيك بمذهب أهل السنة والجماعة الذي نهض بأمره الإمام أبو الحسن الأشعري بعد أن كثرت الفرق والمذاهب وضاعت ملامح طريق الحق على كثير من المسلمين، فالمبتدعة استنصروا بولاة الأمر المتأثرين بهم، والذين نالوا حظوة لديهم، وآخرون سلكوا سبيل تشويش صورة الحق تحت تأثير الفلسفات التي ترجمت إلى اللغة العربية فأخضعوا حقائق الدين الغيبية وغيرها لمعايير الفلسفة التي حمّلت العقل ما لا يحمل فضلوا وأضلوا. فكان لا بد من تجلية الحق وإظهاره ونصرته على يد من يملك ناصية المعرفة بقوة وإتقان فبرز الإمام أبو الحسن الأشعري الذي عرف متاهة المبتدعة من المعتزلة فترة من حياته، ثم عاد إلى نهج القرآن والسنة والفهم الصحيح لهما ليكون ناصر الحق في مذهب أهل السنة والجماعة. ودونكم ما ذكره عنه أئمتنا الأعلام كالعز بن عبد السلام وابن السبكي وغيرهم كثير. ولم ينل منه إلا بقايا المعتزلة ومن على شاكلتهم من المبتدعة.

أيها السادة

لقد اخترت أن تكون ورقتي تلخيصاً لمحاضرة ألقاها سيدي الوالد الشهيد عن إمام أهل السنة والجماعة أبي الحسن الأشعري الذي تجنى عليه وعلى مذهبه إخوة لنا، ليتهم ينصفون أنفسهم في موقفهم من أبي الحسن الأشعري، الذي عدوا منهجه في التوحيد والعقيدة مذهباً مستقلاً مخالفاً لمذهب أهل السنة والجماعة. مع أنه هو الذي أحيا ونصر مذهب أهل السنة والجماعة. ودونكم ما ألقاه رحمه الله عنه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام الأتمان على رسوله محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فإن حديثي هنا عن الإمام أبي الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعري (260-324هـ) سيتناول بتوفيق الله المسائل التالية:

أولاً: هل كان الإمام الأشعري مُنشئاً لفرقة إسلامية في العقائد جديدة؟

ثانياً: ما المنهج الذي ألزم الإمام الأشعري نفسه به وسار عليه، فيما انتهى إليه من مسائل العقيدة، وما كان يخوض فيه منها أرباب الفرق والكلام؟

ثالثاً: بعض التطبيقات على منهجه.

رابعاً: ما الآثار التي تركها الإمام الأشعري في توجهات علماء العقيدة الإسلامية من بعده؟ وما الدور الذي لعبه في إبراز ما يسمى بمذهب جمهور المسلمين، أو مذهب أهل السنة والجماعة؟

خامساً: هل في آراءه الكلامية (أو الاعتقادية) ما خالفه فيه بعض من جاء بعده من أئمة أهل السنة والجماعة؟

* * *

ولنبدأ بأولى هذه المسائل: هل كان الإمام الأشعري منشئاً لفرقة إسلامية في العقائد جديدة؟

والجواب عن هذا يتبين في حديث الأشعري نفسه والمراجع التي يعتمد عليها ثم لا يخرج عنها في مسائله التي يتبناها ويدافع عنها.

* إنه يعرض في كتابه (مقالات الإسلاميين) لآراء كثير من الفرق في كثير من المسائل: ثم يُفرد فصلاً عنوانه: (وهذه حكاية جملة ما عليه أصحاب الحديث وأهل السنة) ويعرض فيه عقائد أهل السنة والجماعة في تلك المسائل كلها مأخوذة من صريح القرآن وصحيح السنة، ثم يقول: (وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب، وما توفيقنا إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل وبه نستعين وعليه نتوكل وإليه المصير)[1].

* وهو يعرض لمذاهب كثير من المجسِّمة، ثم ينقل عمن يسميهم أهل السنة وأصحاب الحديث تنزيههم الله تعالى عن الجسم والشبيه والنظير، ثم يقول: (ولم يقولوا شيئاً إلا ما وجدوه في الكتاب، أو جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ، وبهذا نقول)[2].

ويؤكد موقفه هذا في مكان آخر يروي فيه ما يقوله المجسمة عن العين واليد لله تعالى، ثم يقول: (لسنا نقول في ذلك إلا ما قاله الله عز وجل، أو جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ، فنقول: وجه بلا كيف، ويدان وعينان بلا كيف)[3].

* ويكرر مؤكداً مثل هذا في كتابه الإبانة. على أن جلّ ما ذكره فيه مثبت في كتابه: (مقالات الإسلاميين)[4].

---

(1) مقالات الإسلاميين: ص297، طبعة جمعية المستشرقين الألمانية.

(1) المرجع السابق: ص211.

(2) المرجع ذاته: ص217.

كما يتبين الجواب عن هذا السؤال أيضاً فيما اجتمعت عليه كلمة الأئمة والعلماء الذين جاؤوا من بعده، فقد أجمعوا على أنه لم يبتدع مذهباً ولم ينشئ فرقة جديدة أضيفت إلى الفرق التي وجدت ثم تكاثرت في عصر التابعين، وهو ذاته ما أجمع عليه علماء الحديث والتفسير وأئمة الفقه في عصره.

يقول ابن عساكر، ناقلاً عن الشيخ أبي القاسم القشيري ما نصه:

(اتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعري، كان إماماً من أئمة أصحاب الحديث، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة، وردّ على المخالفين من أهل الزيغ والبدع)[5]

ويقول ابن السبكي في طبقات الشافعية: (اعلم أن أبا الحسن لم يبدع رأياً ولم ينشئ مذهباً وإنما هو مقرِر لمذهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله ﷺ. فالانتساب إليه إنما هو بأنه عقد على طريقة السلف نطاقاً وتمسك به، وأقام الحجج والبراهين عليه، فصار المقتَدِي به في ذلك، السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعرياً)[6]

ثم يقول العلامة الشهيد: وعلى الرغم من وضوح هذه الدلائل كلها، فإن في الناس من يصرّون، لأمر ما، على أنه هو الآخر كان صاحب فرقة، ومنشئ مذهب، ومبتدعاً لرؤى فكرية وفلسفية، ويبدو أن هؤلاء الناس متلبسون بما يتهمون به الإمام الأشعري، ولا ريب أنهم يتبعون في هذا الذي يذهبون إليه ويصرون عليه، جماعة المستشرقين الذين طاب لهم أن ينصرفوا إلى دراسة الفرق الإسلامية وتاريخها.

وإني لأذكر أن المستشرق الفرنسي (ماسينيون) زار كلية الشريعة من جامعة دمشق في أواخر الستينات من القرن الماضي. وعندما أبدى إعجابه بالإسلام وقف أحدهم مرة يقول له: فلماذا لا تتبنى إذن هذه المعتقدات وتعلن عن دخولك في الإسلام؟.. فأجابه قائلاً: أي إسلام تدعوني إلى دخوله: أهو الإسلام المعتزلي أم المرجئي أم الجهمي أم الأشعري أم الماتريدي أم الخارجي أم الشيعي..

ثم يقول الإمام الشهيد رحمه الله: إن الإمام الأشعري لم يبتدع لنفسه مذهباً ولا رأياً في الدين، بل لفت نظره (وقد أمضى شطراً من عمره وهو يتبنى أفكار المعتزلة) ما يعتقده أهل السنة والحديث، ومعهم الفقهاء المشتغلون بدراسة أحكام الشريعة، في مسائل أصول الدين، موروثةً لهم من جيل التابعين، الذين ورثوها من عهد الصحابة رضوان الله عليهم.

---

(3) في الناس من يبعث الريب في نسبة كتاب (الإبانة) أو بعض ما فيه إلى الأشعري. وجلّ ذلك موجود في كتابه مقالات الإسلاميين. وليس في الناس من يرتاب في نسبته إلى الأشعري.

(4) تبيين كذب المفتري: ص112و113.

(5) طبقات الشافعية: 365/3.

فكان عمل أبي الحسن الأشعري محصوراً في إزاحة الركام عن تلك الجادة العريضة، وإبرازها جلية أمام الأنظار، ومن ثم تنبيه الناس إلى ضرورة اتباع ما عليه جماعة المسلمين منذ عصر النبوة، مدعوماً بنصوص الكتاب والسنة.

ثم يقول رحمه الله: في الناس من يقول: فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا تنسب عقيدة الصحابة والسلف وجمهرة المسلمين إلى شخص الإمام الأشعري؟ ولماذا يُنسَبُون جميعهم إليه فيقال عنهم: الأشاعرة، وربما نُسِبوا إليه وإلى أبي منصور الماتريدي[7]، فقيل عنهم الأشاعرة والماتريدية.

والجواب أن الإمام الأشعري هو الذي قام – من دون بقية علماء السنة والفقه – بالدفاع عن عقائدهم والتدليل عليها وتزييف ما يخالفها من بدع الفرق الأخرى. فانتشر اسمه بذلك في الآفاق وتواردت عليه المسائل من أقطار العالم فأجاب عنها، وعمت جهوده العلمية التي سميت بمذهب أهل السنة والجماعة، بلادَ العراق وخراسان والشام وبلاد المغرب، وتجاوزتها إلى أقصى بلاد أفريقية. فمن أجل هذا ارتبطت عقائد السلف، أهل السنة والجماعة، باسم الإمام الأشعري.

* * *

المسألة الثانية: ما المنهج الذي ألزم الإمام الأشعري نفسه به وسار عليه؟

بوسعنا أن نستخلص المنهج الذي ألزم الإمام الأشعري به نفسه، مما دوّنه في كتبه التي وصلت إلينا مثل مقالات الإسلاميين والإبانة ورسالة إلى أهل الثغر وغيرها. ونلخصه فيما يلي:

أولاً: إنه يرى أن دور العقل أمام مصدري القرآن والسنة، يتمثل في الكشف عن أنه كلام الله وأن محمداً عبده ورسوله ثم يتمثل في إدراك مضامينهما وتجلية الغوامض منهما، وإزاحة غواشي اللبس عنهما، كما يتمثل في دعم كل ما قرره بيان الله أو سنة رسوله، بالبراهين العقلية. فالعقل إذن عند الأشعري خادم لنص القرآن وصحيح السنة، وما ينبغي أن يكون حاكماً عليه. بل إنه يرى أن تسليط العقل على القرآن أو السنة بالحكم عليه لصالحه، أي لصالح العقل، يفقد العقل وظيفته عن طريق تحميله لما ليس من شأنه أن يحمله. إذ إن نصوص القرآن والسنة لا تتضمن من المعاني إلا ما يتفق مع موازين العقل، سواء ظهر لنا ذلك أم لم يظهر، والقول بخلاف ذلك ولوغ في الكفر الصريح. إذن فتسليط الاجتهادات العقلية على أيّ من نصوصهما بحكم التغيير والتأويل المجانفين لقواعد اللغة والدلالات، ليس في الحقيقة إلا إقصاء للعقل عن وظيفته، وإن أوهم في الظاهر أنه خضوع لسلطانه. ولقد عبّر الأشعري عن مبدئه هذا بقوله في أكثر من موضع في كتابه (مقالات الإسلاميين): (ولا نقدم بين يدي الله في القول) أي لا

(1) هو محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي، نسبة إلى ماتريد ضاحية من سمرقند من بلاد ما وراء النهر. توفي عام: 268هـ.

نتجاوز كلام الله إلى ما قد يخالفه من أحكام عقولنا. لا لأننا نغلب سلطان النقل على العقل، بل لأننا نتهم أنفسنا بالتنكب عن معرفة قرار العقل، في كل ما نخالف به قرار النقل الذي هو نص القرآن وصحيح السنة[8].

ثانياً: لم يكن يتبسط في ممارسة علم الكلام، على النحو الذي نراه في صنيع كثير ممن جاؤوا من بعده، وإنما كان يعود إلى مسائله كلما اضطره الأمر إلى الرد على المتشدقين والمتجمّلين بها، من المعتزلة والحشوية والقدرية وأضرابهم. ولقد كانت له قدم راسخة في العلوم والمسائل الفلسفية التي ولع بها المبتدعة من أولي الفرق الجانحة، فكان ردّه عليهم بأدلتهم من الواجبات الداخلة في القاعدة القائلة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

ثالثاً: يرى ضرورة الاستدلال بالحديث الصحيح، متواتراً كان أو آحاداً، والأخذ بما كان يراه أصحاب رسول الله ﷺ، يقول في كتابه الإبانة (ونسلم الروايات الصحيحة عن رسول الله، التي رواها الثقات عدل عن عدل حتى تنتهي الرواية إلى رسول الله ،ﷺ ولكن الكفر لا يكون إلا بإنكار ما هو متواتر ومعلوم من الدين بالضرورة[9]. ويرى أنه لا ينسخ القرآنَ إلا القرآنُ ولا ينسخ السنة إلا سنة مثلها. فإن وجدت سنة نسخت قرآناً فلا بدّ أن تجدَ مع السنة قرآناً يؤيدها. وإن وجدت قرآناً نسخ سنة فلا بدّ أن تجد مع القرآن سنة تؤيده. وهو يذهب في ذلك إلى مثل ما ذهب إليه الشافعي[10].

رابعاً: يرى الإمام الأشعري أن أسماء الله تعالى وصفاته يُعتمد فيها على النقل من الشرع (أي النص) ولا يجوز الإتباع فيها لأقيسة اللغة. يقول: (إن طريقي في مأخذ أسماء الله الإذن الشرعي دون القياس اللغوي فأطلقت حكيماً لأن الشرع أطلقه، ومنعت عاقلاً لأن الشرع منعه. ولو أطلقه الشرع لأطلقته)[11].

خامساً: يقرر الإمام الأشعري أن كل ما هو داخل في المتشابه من آيات الصفات والأفعال، يجب فهمه على ظاهره وتفسيره بمعناه الحقيقي دون كيف، ولا يجوز إخراج شيء منه إلى المجاز، إلا عند وجود حجة تدعو إلى ذلك. يقول جواباً عمن سأله: ما أنكرتم أن يكون قوله تعالى: (مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا) وقوله: (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) على المجاز!.. يقول: (حكم كلام الله أن يكون على ظاهره وحقيقته، ولا يخرج الشيء عن ظاهره إلى المجاز إلاّ لحجة. ألا ترون أنه إذا كان ظاهر الكلام العموم، فإذا ورد بلفظ العموم

(1) انظر مقالات الإسلاميين. ص:211.

(3) مقالات الإسلاميين: ص290، الإبانة: ص8-9، رسالة إلى أهل الثغر: ص83.

(1) مقالات الإسلاميين: ص479.

(2) من مناظرة بين الإمام الأشعري وأبي علي الجبائي. انظر طبقات الشافعية: 357/3.

والمراد به الخصوص، فليس هو على حقيقة الظاهر، وليس يجوز أن يعدل بما ظاهره العموم عن العموم بغير حجة. كذلك قول الله عز وجل: (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) على ظاهره وحقيقته من إثبات اليدين. ولا يجوز أن يُعدل به عن ظاهر اليدين إلى ما ادعاه خصومنا إلا بحجة. ولو جاز ذلك، لجاز لمدع أن يدعي ما ظاهره العموم فهو على الخصوص وما ظاهره الخصوص فهو على العموم بغير حجة. وإذا لم يجز هذا لمدعيه بغير برهان، لم يجز لكم ما ادّعيتموه)[12]

من تطبيقات هذا المنهج:

نذكر من ذلك نماذج، إذ لن يتاح لنا تجاوزها واستقصاء بنيان العقيدة الإسلامية المرتكز على هذا المنهج، في هذه الورقة التي التزمت فيها الاختصار والتلخيص.

* فمن تطبيقات هذا المنهج، ما قرره الإمام الأشعري متّبعاً في ذلك جمهور المسلمين، أهل السنة والجماعة من (أن الله سبحانه يُرى بالأبصار يوم القيامة، كما يُرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون)

وقرار الأشعري هذا مستند إلى حكم العقل القاضي بأن محمداً رسول الله وأنه صادق فيما قال عن نفسه من أنه يوحى إليه من قبل الله بشرع وأنباء، والأدلة العقلية على ذلك مبسوطة في أماكنها. ثم أصغينا إلى هذا الذي يقوله وحياً من عند الله، فإذا فيه قوله عز وجل: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)[القيامة: 22-23] وإذا فيه قوله عن الكافرين عقاباً لهم: (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ)[المطففين: 15] فكان من قرار العقل تصديق هذا الذي جاء وحياً من عند الله.

ثم إن منهجه القاضي بتفسير الألفاظ الواردة في القرآن والسنة بظاهرها الحقيقي، وعدم الشرود بها إلى المعاني المجازية ما أمكن ذلك، أوجب تفسير كلمة (ناظرة) بمعناها الحقيقي لا صرفها إلى المجاز عن طريق تأويلها بمنتظرة. إلى أن يقول: إذن فمخالفة الإمام الأشعري للمعتزلة في هذه المسألة، إنما هي استجابة منه لقرار العقل وحكمه وإن بدا في وهم المعتزلة وذيولهم أنه تجاهل للعقل رعايةً لما يقضي به النص.

ثم يقول رحمه الله ومن نماذج هذه التطبيقات التزامه الدقيق بما قرره في منهجه الذي لخصناه، من أخذه بمصطلحات القرآن وعدم تجاوزه لها. ألم يقل: (ولا نقدم بين يدي الله في القول) وقد علمنا أنه ألزم نفسه بذلك مخافة أن يوقعه التجاوز في الزغل، فيتنكب بذلك عن قرار العقل ذاته، إذ إن نص البيان الإلهي هو المصباح الهادي إلى قرار العقل عندما يكون صافياً عن الشوائب.

(3) انظر طبقات الشافعية: 359/3.

فمن ذلك إتباعه للنص القرآني القاضي بالفرق بين رضا الله وإرادته. فقد قال عز وجل (وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)[الزمر: 7]، فدل على أن الكفر ليس من مرضيات الله عز وجل. وقال (وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ)[المائدة: 41]، فدل على أن قذارة قلوب الكافرين بكفرهم من مرادات الله عز وجل .. فإرادة الله عز وجل إذن أعم من رضاه .. وأي مخالفة لهذا الذي دلّ عليه بيان الله، تقدُّمٌ بين يدي الله، وعليه، في القول وسبْقٌ عليه في القرار والحكم(13).

ومن ذلك الوقوف عند قرار الله القائل بتخليد الكافرين في العذاب، وتخليد المؤمنين في النعيم، وعدم تجاوز ما دلّ عليه قرار البيان الإلهي هذا، بأي تأويل أو تفسير مخالف أو إضافة .. فأنكر على القائلين بفناء النار، وأنكر على القائلين بنحو ذلك.

ومن ذلك وقوفه عند المصطلح القرآني (الكسب) وإيثاره لاستعمال هذه الكلمة على استعمال مصطلح الاختيار أو القصد والعزم الذي جنح إليه الآخرون.

إنه ألزم نفسه بهذا المصطلح، لأنه المصطلح الوارد متكرراً في القرآن تعبيراً عن مصدر استحقاق الإنسان للجزاء في أفعاله، وهو القصد والعزم. إذن فكلمة (الكسب) في القرآن لا تعني الفعل، كما قد توهم البعض، والدليل على ذلك قوله عز وجل: (وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ)[البقرة: 225]، فقد نسب الكسب إلى القلوب، وإنما تقف وظيفة القلوب عند حدّ القصد والعزم .. وقد استقام بهذا الالتزام من الإمام الأشعري الدليل القاطع الذي واجه به المعتزلة على أن الجزاء يوم القيامة ليس على الأفعال التي هي من خلق الله وبقدرته، وإنما هو على الكسب الذي هو عزم الإنسان وقصده، والذي ورد في أكثر من عشر آيات في القرآن.

ثم يقول: ومن هذه النماذج، التطبيقات الكثيرة لما ألزم نفسه به من تفسير آيات الصفات بمعانيها الحقيقة دون كيف، إلا عند وجود الحجة الصارفة للحقيقة إلى المجاز.

ينبني على هذا الكلام أن في آيات الصفات ما لا حجة فيه على التأويل، وفيها ما ثبتت فيه الحجة بالإجماع على ضرورة التأويل، وفيها ما كانت الحجة فيه محل اجتهاد ونظر..

فأما ما لا حجة فيه على التأويل، فيجب فهمه على ظاهره وحقيقته دون إلحاق أي كيف بذاته عز وجل، ذلك هو قرار الإمام الأشعري وهو مذهب السلف وأهل السنة والجماعة، وقد ضرب الأشعري لذلك أمثلة في كتابه الإبانة ومقالات الإسلاميين.

(1) انظر طبقات الشافعية: 358/3، مقالات الإسلاميين: ص294 وص418 وما بعدها، ورسالة إلى أهل الثغر: ص169. طبعة دمشق.

وأما ما ثبتت الحجة فيه بالإجماع على ضرورة التأويل، فمن أمثلته قوله عز وجل خطاباً لنبيه المصطفى ﷺ: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)[الطور:48] فقد تم الإجماع على أن كلمة الأعين لا تصلح لأن تكون ظرفاً للنبي ﷺ لا من حيث الإمكان العقلي ولا من حيث الواقع الفعلي، إذن فلا بدّ من صرف (الأعين) إلى معنى الحماية والرعاية، ولا يتأتى الاختلاف في ذلك قط. ومن أمثلته الوجه في قوله تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)[القصص: 88] فلا يتأتى تفسير الوجه بمعناه الحقيقي الذي هو جزء من الذات، ولكن وقع الخلاف في المجاز الذي يجب أن يؤول إليه. ومن ذلك ما صح من تأويل الإمام أحمد لـ"جاء" في قوله تعالى: (وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً)[الفجر:22]، بمعنى وجاء أمر ربك مستدلاً على ذلك بقوله تعالى: (أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ)[النحل: 32][14]

ومن ذلك ما رواه البيهقي عن حماد بن زيد، من تأويله لنزول الله إلى السماء الدنيا، الوارد في أحاديث النزول، بإقباله جل جلاله على عباده[15].

ومن ذلك ما رواه ابن تيميه رحمه الله عن الضحاك من تأويله (الوجه) في قوله تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)[القصص: 88] بذاته تعالى والجنة والنار والعرش[16].

ومن ذلك قوله تعالى (وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ)[البقرة: 115]، فقد حكى المزني عن الإمام الشافعي أنه قال في هذه الآية: يعني والله أعلم فثم الوجه الذي وجّهكم الله إليه. وذهب مجاهد، فيما رواه البيهقي عنه، إلى أن المراد بالوجه في الآية قبلة الله، أي فأينما كنت في شرق أو غرب فلا تتوجه إلا إليها[17].

المسألة الثالثة: النتائج التي أفرزها دفاع الإمام الأشعري عن العقيدة الإسلامية التي تركها رسول الله ﷺ من بعده نقية صافية ظاهرها كباطنها لا يتيه عنها إلا زائغ، والتي اجتمع على التمسك بها أهل السنة والجماعة، سواء منها ما ظهر في عصره أو برز من بعده.

نلخص هذه النتائج فيما يلي:

أولاً: كان جمهور أهل السنة والجماعة من علماء التفسير والحديث والفقه، منصرفين إلى علومهم، معرضين عن ضجيج الفرق الإسلامية الشاردة عن الحق، مبتعدين عن خصوماتهم، حتى غدت عقيدة أهل الكتاب والسنة مغمورة ومحجوبة في ضجيج تلك الفرق وصراعات ما بينها. فلما قيض الله من الإمام

(1) الأسماء والصفات للبيهقي: ص292.

(2) المرجع السابق: ص456.

(3) مجموعة فتاوى ابن تيمية: 428/2.

(4) الأسماء والصفات: ص309.

الأشعري نصيراً للحق الذي كان عليه سواد الأمة الإسلامية، وفي مقدمتهم المحدّثون والمفسرون والفقهاء، أحدق به أهل الحق واتخذوا منه نصيراً للحق الذي ورثوه من أصحاب رسول الله، بعد أن كانوا مبتعدين عن ساحات الخصومات العقائدية، وامتدت جسور التواصل بينه وبين فقهاء المذاهب، واشتدت آصرتهم به، وساروا على نهجه الذي كان هو نهجهم من قبله، ولكن دون رسم وبيان وإعلان[18].

والمهم أن أياً من أهل الحق وأئمة الفقه والحديث، لم يقف منه موقف الناقد أو المخاصم بمن فيهم الحنابلة والحنفية على الرغم من أن كثيراً منهم كانوا أتباعاً للإمام أبي منصور الماتريدي، وسبب ذلك أن نقاط الخلاف بين الإمامين كانت قليلة، وكان الخلاف في معظمها لفظياً أو اجتهادياً[19].

ثانياً: في الوقت الذي أحدق به أهل الحق أتباع الكتاب والسنة، مؤيدين ومتبعين، وقف منه المعتزلة الذين كان الإمام الأشعري منهم، ثم تحول عنهم وكشف عن عوارهم، موقف المخاصم، بل الحاقد المعادي. فأوسعوه افتئاتاً، واختلقوا عليه من الأباطيل ما هو منه بريء، وشوّهوا الحقائق التي كان يجليها ببياناته العلمية الدقيقة، وراحوا يتعمدون تنكيسها على لسانه.

من ذلك ما اختلقوه ونسبوه إليه، من أن الله لا يجازي المطيعين على إيمانهم وطاعاتهم، وأنه عز وجل لا يعذب الكفار والعصاة على كفرهم ومعاصيهم. وإنما استخرجوا هذه الأكذوبة عليه من قوله راداً عليهم: إن الله تعالى لا يجب عليه شيء إذ الخلق خلقه، والملك ملكه، والحكم حكمه، فله أن يتصرف في عباده بما يشاء[20].

ومن ذلك أنهم نسبوا إليه نقيض ما اهتم به وخلاف الدور الذي قام به من قطع دابر الغنوصية وصرف أذهان المسلمين عنها والتحذير من الركون إليها والاستسلام لها. فقد ألصقوا به نقيض ذلك من تهمة التأثّر بالغنوصية والدعوة إليها.

وسبب ما دعاهم إلى ذلك تحذيره في أكثر من مناسبة، من الاستدلال على الحقّ الذي جاء به الرسل والأنبياء، بغير القرآن والسنّة، وتحذيره من الركون إلى الأدلة الفلسفيّة وما أصبح يسمى بعلم الكلام إلا بقدر الضرورة. ومن المعلوم أن التعامل بالفلسفة وعلم الكلام هي البضاعة الأولى للمعتزلة في نطاق الاستدلال. ونظراً إلى أن الإمام الأشعري استخف ببضاعتهم هذه وحذر منها، فقد كان لا بدّ لهم أن

---

(1) انظر: مقدمة الشيخ زاهد الكوثري لكتاب تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري: ص9-17، وكتاب المذاهب الإسلامية للشيخ أبو زهرة: ص265، وشذرات الذهب لابن العماد: 303/2.

(2) جمع ابن السبكي هذه المسائل الخلافية بينهما في ثلاث عشرة مسألة، وللشيخ زاده رسالة أسماها: (نظم الفرائد وجمع الفوائد في بيان المسائل التي وقع فيها الاختلاف بين الماتريدية والأشعرية في العقائد)، وقد ذكرت أهمها في كتابي: (المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة)، ولولا بعد المكان الذي فرق بين الإمامين، لانتهيا من هذه المسائل إلى وفاق.

(1) انظر: طبقات الشافعية لابن السبكي: 414/3.

يتهموا الأشعري باللاعقلانية والاعتماد فيما يعتقد ويدعو إليه على الكشف والإلهام والحدس، بعيداً عن موازين العلم والنظر. وذلك هو شأن الغنوصيين والسبيل إلى معتقداتهم[21].

ثالثاً: ظهر بعد وفاة الإمام الأشعري بعض المتطرفين، وأكثرهم من الحنابلة، ساقهم الجهل وحملتهم العصبية على مخالفة أصول مذهبهم أولاً، فخرجوا من إجماع جمهرة المسلمين أهل السنة والجماعة، لاسيما في آيات الصفات، ثم إنهم ناصبوا أبا الحسن الأشعري العداء، واختلقوا أموراً نسبوها إليه لم يقل بها قط، واخترعوا على لسانه أقاويل ثبت في كتبه القول بنقيضها، وسمّوا أنفسهم ترويجاً لشبهاتهم وستراً لغلوهم وتطرفهم بأنصار السلف.

ومن أبرز ما يدل على تخبطهم ومخالفتهم للسلف، أن أبا الحسن الأشعري كان واحداً من عيون السلف، وأن أياً من أقطاب السلف ورجاله الذين كانوا في عصره لم يخالفه في شيء مما ذهب إليه، بل وجدوا فيه نصيراً للحق الذي كانوا متمسكين به، داعياً إلى الاهتداء بالكتاب والسنة ونبذ كل ما يخالفهما من البدع والفلسفات المستحدثة، ولم يكن في حنابلة ذلك العصر من يخالفه في الرأي فضلاً عن أن يناصبه العداء .. إذن فوقوف هؤلاء الذين جاؤوا من بعده موقف العداء منه، إنما هو في الحقيقة مخاصمة ومعاداة لكل أولئك الذين اتبعوه ووقفوا منه موقف الاغتباط والتأييد من أئمة الحديث والتفسير والمذاهب الفقهية ومنهم الحنابلة، وهل السلف الصالح إلا أولئك الرجال؟

وقد انبرى للرد عليهم والكشف عن جنوحهم عن نهج السلف وضوابط الكتاب والسنة، كثير من أئمة الدين وأنصار السنة، ولعل خير من كتب في الرد عليهم والدفاع عن الإمام الأشعري ابن عساكر رحمه الله وذلك في كتابه: (تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام الأشعري) ومن أفضل ما ظهر أخيراً في الموضوع ذاته كتاب: (براءة الأشعريين)، فهو كتاب علمي جليل أخرجه مؤلفه رحمه الله في مجلدين.

رابعاً: ذهب بعض الفضلاء إلى أن في الأشاعرة الذين جاؤوا بعد أبي الحسن الأشعري من خالفوه في نهجه، فأوّلوا كثيراً من آيات الصفات ولم يذهب هو إلى تأويلها، واعتمدوا في كثير من مسائل العقيدة على علم الكلام واسترسلوا في التعامل به دونما حاجة، وكان منهجه الوقوف عند دلائل القرآن والسنة، وعدم الاستعانة بالفلسفة وعلم الكلام إلا بالقدر الذي تدعو إليه الحاجة أو الضرورة.

ويرى رحمه الله تعالى أن هذا الكلام غير مسلم به ويفصل في ذلك بما لا أرى داعياً لبسط الكلام فيه في هذا المقام.

(2) نشأة الفكر الإسلامي للدكتور علي سامي شنار: 171/1، ورسالة إلى أهل الثغر: ص120 وما بعدها.

ثم يقول رحمه الله: إذن فالجامع المشترك بين السلف والخلف من أهل السنة والجماعة هو الالتزام بالمنهج الذي ألزم به الإمام الأشعري نفسه وسار عليه في الدفاع عن بنيان العقيدة الإسلامية، ضد الفرق التي تكاثرت تكاثر الثآليل على الجسم السليم السوي، فالكل، بمن فيهم الإمام أبي منصور الماتريدي، كانوا سائرين على هذا المنهاج الجامع، ولم تكن خلافاتهم الاجتهادية إلا داخل مساحته وتحت سلطانه.

وأما القول بأن في أئمة أهل السنة والجماعة الذين كانوا في عصر الخلف من استرسل في الاعتماد على علم الكلام وربما تجاوز إلى تحكيم الرؤى والمسائل الفلسفية، في مجال البحث في العقائد، فالذي أراه هو أن الواقع يشهد بذلك. وقد كان الأولى تجنيب مسائل العقيدة الإسلامية مخاضة الفلسفة وأوهامها. وكان الأولى عدم الاستعانة بعلم الكلام إلا عندما تقتضيه الحاجة أو تلجئ إليه الضرورة.

خامساً وأخيراً: كان من أبرز النتائج لهذا الذي وفّق الله له أبا الحسن الأشعري، من وقوفه الجهاديّ ضد المبتدعة وتياراتهم الفكرية التائهة عن هدي القرآن والسنة، وانتصاره للحق الذي ترك رسول الله أصحابه عليه، أن خمدت جذوة تلك الفرق ومنيت بالهزيمة الفكرية، وفي مقدمتها المعتزلة الذين أتيح لهم أن يهيمنوا على الفكر الإسلامي ردحاً من الزمن، فبادت تلك الفرق شيئاً فشيئاً بعد أن سادت. ولم يكن سبيل ذلك خنقاً للحريات ولا إسكاتاً للألسن ولا تجريماً للأفكار. وإنما كان سبيل ذلك الحوارَ العلميَ المتحررَ عن أسبقيات العصبيات المذهبية والأحقاد النفسية والمغانم الدنيوية. وشاء الله تعالى أن يكون أبو الحسن الأشعري هو رائد الحوار، وهو قائد الدعوة إلى تحكيم العلم، والرجوع إلى هدي القرآن والسنة، فكان في إقبال أئمة التفسير والحديث والفقه وأتباعهم عليه، وفي دعمهم له وسيرهم وراءه ما أعاد منهج أهل السنة والجماعة وتيارهم إلى البروز وفاعلية الحكم والتوجيه. . انتهي ملخص كلام سيدي الوالد الشهيد رحمه الله

* * *

واليوم.. ليس بيننا وبين أن يعود هذا التيار .. تيار أهل السنة والجماعة الواحد والموحد، إلى البروز والفاعلية وجمع الكلمة، سوى أن تصمت العصبيات وينطق العلم صافياً عن الشوائب، وأن يتحكم الإخلاص لله عز وجل، ويغيب ميزان الأهواء والمصالح، فنسألك اللهم أن تحررنا من عصبيات أنفسنا، وأن تغرس نعمة الإخلاص لوجهك في قلوبنا، إنك ولينا وإليك يرجع الأمر كله والحمد لله رب العالمين.

إن المجازفة من قبل البعض بإطلاق وصف الضلالة والتكفير على مخالفيهم دون ضوابط شرعية وخلافاً لما ثبت في صحاح السنة عن ذلك، وخلافاً لما أطلق النبي ﷺ من دخول كل من قال لا إله إلا الله الجنة، جهد يصب في تمزيق الأمة، وتألّ على الله دون حق. والأمة اليوم أحوج ما تكون إلى توحيد الكلمة على

ثوابت الدين وأحوج ما تكون إلى إزالة أسباب اللبس بالكلمة الطيبة والحوار الأخوي، لا إلى الإمعان في نشر مشاعر الكراهية وإطلاق أحكام التكفير دون ضوابط.

وأختم بكلام ذكره الإمام الشهيد حول حديث تفترق أمتي:

من هذه الأحاديث ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: من لقي الله لا يشرك به شيئاً حرَّم الله عليه النار، ومن ذلك ما رواه النسائي من حديث أبي عمرة الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني عبده ورسوله لا يلقى اللهَ عبدٌ يؤمن بهما إلا حُجِبَتْ عنه النار يوم القيامة، وروى أبو داود والحاكم من حديث معاذ رضي الله عنه: من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار، وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: من قال لا إله إلا الله مخلصاً بها دخل الجنة، وأنتم تعلمون أن هؤلاء الذين يقولون لا إله إلا الله ويموتون وهم مستمسكون بها فيهم كثيرٌ ممن تبنى فرقة من الفرق، تبنى مذهباً من المذاهب، اجتهد في إتباع فئة من الفئات وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن في أحاديث بلغت مبلغ التواتر المعنوي أن لا حرج، كلهم ناجون وكلهم يكرمهم الله بالجنة، أفيمكن أن يناقض رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه فيقول في هذا الحديث ما يناقض مناقضة حادة هذه التأكيدات التي ذَكَرْتُ لكم طائفة يسيرة منها فيقول وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا ملة واحدة ويعني بذلك الفرق الإسلامية والمذاهب الإسلامية المتنوعة إذاً فرسول الله يناقض نفسه! وحاشاه. إذاً فما معنى الحديث؟ تأملوا يا عباد الله فيما أقوله لكم، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، مقتضى بلاغة المصطفى وكونِه حجة في البيان والفصاحة وكونه أُوتِيَ جوامع الكلم أن يقابل كلمة اليهود والنصارى بكلمة المسلمين فيقول وسيفترق المسلمون إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة لكنه عَدَلَ عن كلمة المسلمين وإنما قال وستفترق أمتي إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة والمراد بالأمة هنا أمة الدعوة لا أمة الاستجابة، كل من وُجِدَ في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من وُجِدَ فيما بعد إلى قيام الساعة من أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه من أمة الدعوة ومن آمن منهم أصبح من أمة الاستجابة، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : وستفترق أمتي، أي أمة الدعوة، إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة، أي إلى أديان مختلفة متناقضة شتى، والدليل الناطق على هذا أنه قال بعد ذلك: كلها في النار إلا ملة واحدة ولم يقل إلا فرقة واحدة، كلها في النار إلا ملة واحدة هي ملة الإسلام بكل فئاتها، بكل مذاهبها، بكل أقوامها، الجامع المشترك بينها والذي يجعل لها هوية الرحمة من الله سبحانه وتعالى ويجعلها تدخل إلى بوابة الرحمة الإلهية والواسعة أنها جميعاً لَقِيَت الله عز وجل وهي تؤمن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، هذا هو المعنى الذي قصده المصطفى صلى الله عليه وسلم وهيهات هيهات أن

نفسر هذا الحديث بما يروق لنا وبما يبرر المذهبية التي نتعصب لها أو بما يبرر الفرقة التي نتعصب لها والتي نرى أن غيرنا ممن لا يتبناها آيلٌ إلى النار وآيلٌ إلى الدمار، هيهات أن يكون قصد رسول الله ذلك إذاً لناقض نفسه وإذاً لوقعنا أمام مشكلة تجاه هذه الأحاديث الكثيرةِ الكثيرة التي بلغت مبلغ التواتر والتي حدثتكم عن بعضٍ منها.

أعتذر عن الإطالة وأسأل الله أن يبارك جهودكم لجمع كلمة المسلمين على طريق الهداية والصلاح

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته